

# تحقيق العبادة لله تعالى وارتباطه بالتوحيد

كذلك أيضا إذا عرفنا أنه خلقنا لعبادته، فإن العبادة لا تُسمَّى عبادة إلا مع التوحيد، كما أن الصلاة لا تُسمَّى صلاة إلا مع الطهارة، فإذا دخل الشُّرك في العبادة أفسدها، كما أن الحدَّ إذا دخل في الطهارة أفسدها، إذا أحدث انتقض وضوء الإنسان؛ فسدت صلواته؛ فعليه أن يجدد الوضوء. فكذلك إذا دعا الله تعالى، ودعا غيره من المخلوقات؛ فقد أفسد عبادته؛ حيث جعل مع الله معبوداتٍ أخرى، وذلك هو الشرك الذي يُحِبُّ الأعمال، قال الله تعالى: { وَكُلُّ أَشْرَكَوا لِحِبْطِ عَنَّهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } . ثم يُقالُ أيضا: ما أوَّلُ شيء فرضه الله عليك؟ فتقول: إن الله تعالى أرسل رسوله بتوحيده وتترك عبادة غيره، قال الله تعالى: { وَوَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الصَّالِحَاتِ } . كل الرسل جاءوا أقوامهم بقولهم: { اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الصَّالِحَاتِ } ؛ أي اتركوا عبادة الطاغوت، والطاغوت: كل ما عُبِدَ من دون الله حَتَّى أُوهِبَها. اجتنوبه؛ يعني ابتعدوا عن عبادته، وابتعدوا عن تعظيمه بأي نوع من أنواع التعظيم، فهذه هي الحكمة التي خَلَقَ الإنسان لها: { اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الصَّالِحَاتِ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّبَ اللَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةَ } . ثم تُعرف أيضا أن العبادة التي أمرُوا بها تُعْمَلُ كُلُّ فُرْيَةٍ يَتَّقَرَّبُ بها إلى الله، فَمَنْ تَقَرَّبَ إلى غير الله بشيء من تلك القربات فقد أشْرَكَ. فَمَنْ دَعَا اللَّهَ وَدَعَا غَيْرَهُ جَعَلَ دَعَاءَهُ مَشْرُكًا، فأصبح مشركا، والدعاء يُعْمَلُ النداء؛ الذي هو دعاء المسألة، ويعمُّ التعظيم؛ الذي هو دعاء العبادة. فإذا مثلا رأيت إنسانا يَتَمَسَّحُ بغير ولي من الأولياء، ويأخذ ثُرَيْبَةً يتبرك بها؛ فقل له: الله تعالى يقول: { وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا } فإذا قال: أنا ما دعوت ما قلت؛ أنت إلهي، ولا قلت؛ أنت ربي، ولا قلت؛ ارحمني، إنما تبركت بربِّته، أو صليته عنده، أو تمسحت بقبْرِهِ، أو بجدار القبر، أو بصلواته؛ فنقول: هذا دعاء؛ لأنك دَعَوْتَهُ بلسان الحال، ما دعوتَه بلسانك، ما قلت؛ يا سيدي ارحمني ولكن تعظيمك له يُعْتَبَرُ دَعَاءً. فنقول: إن على المسلم أن يكون دعاؤه كَلِمَةً لله؛ دعاء العبادة، ودعاء المسألة. دعاء العبادة هو: التعظيم، فهذا الذي جاء إلى قبر ولي، وخضع عنده، وتواضع وتذلل له، أليس يرجوه؟ لا شك أنه يرجوه، وأنه بلسان الحال يقول: يا وليَّ الله إني جئتك لتشفع لي، أو تبارك في عمري، أو تبارك في مالي، أو تصير شافعا لي، أو تصير نافعا لي في دنياي وفي آخراي. أليس ذلك عبادة؟ إن هذا دعاء، وإنه عبادة؛ لأنه تذلل له؛ إَذَا: كَقُلِّ مَنْ دَعَا مَعَهُ أَحَدًا أَشْرَكَ بِاللَّهِ وَلَوْ مَحْمُداً يَعْنِي: ولو دعا محمدا النبي صلى الله عليه وسلم، فقد ثبت أنه صلى الله عليه وسلم لَمَّا قال له رجل: ما شاء الله وشئت، فقال: { أجعلتني لله نِدَاءً؟ قُلْ: يا يَشاءُ الله وجهه { مع أنه في حياته له مشيئة؛ لقوله تعالى: { لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ } ولكن مشيئته مرتبطة بمشيئة الله؛ لقوله: { وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ } . فهذا لا شك أنه قد أشْرَكَ؛ حيث إنه تَبَرَّكَ بهذا الولي في نظره، وبهذا المشهد، وتَحَرَّى الصلاة عنده، وتحرى التمسح به، فهذا دعاء لغير الله، تُسَمِّيهِ دَعَاءً ولو كان لم يَصْرُحْ. فإذا صرَّح وقال: يا ولي الله ارحمني يا ولي الله اشفع لي يا ولي الله ازرقني انصرني على أعدائي؛ فنقول: هذا أيضا شرك، دعاء ظاهر. كذلك أيضا: الخوف من أنواع العبادة، قال الله تعالى: { إِنَّمَا دَلِكُمْ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمَّ وَخَافُونَ } والمراد هاهنا خوف الشُّرك، الخوف الذي في القلب؛ وهو أن يخاف من ميت، أو يخاف من غائب، يخشى أنه إذا لم يُطْعَمْ أو لم يُعْطِ أن يتسلط عليه. هذا أيضا من الشرك؛ ولذلك قال: { فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونَ } . وكذلك الرِّجاء، الرجاء والخوف عبادتان لا يَصِحُّ صَرْفُهُمَا إلى غير الله، إنما المؤمنون يعبدون الله ويخافونه، ولذلك قال تعالى: { أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ } أخبر بأنهم يرجونه ويخافونه، فمن رجا غير الله كما يرجو الله؛ فقد أشْرَكَ. كذلك أيضا المحبة القلبية، التي هي محبة التعظيم، هي عبادة لا تصلح إلا لله؛ ولأجل ذلك أنكروا الله على الذين يسبون بين الخالق والمخلوق في المحبة في قوله تعالى: { وَمِنَ النَّاسِ مَن يَبْغِضُ مَنْ دُونَهُ لِأَنَّ اللَّهَ أَنزَلَهُ عَلَيْهِ مِنَ السَّمَاءِ وَكَيْفَ يَكْفُرُ بِاللَّهِ عَلَيْهِ الْإِنْسَانُ مِنْهُ } . ولذلك جعل الله التوكل عبادة في قوله تعالى: { وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا } . وكذلك يقول الله تعالى: { رَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا } أي تكلِّ إليه جميع حالاتك. وهكذا أيضا من العبادات: الرغبة والرغبة والخشوع، قال الله تعالى: { وَإِلَى قَارِبُونَ } الرهبة شدة الخوف، وقال: { وَإِلَى رَبِّكَ قَارِعِبٌ } الرغبة هي قوة الرجاء، وتعلق القلب بالله تعالى في رجائه. وكذلك من العبادات: الخوف والخشية. الخشية أشد الخوف؛ ولذلك قال تعالى: { فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنَا } أي لا تخشوا الأعداء، ولا تخشوا المخلوقات، وإنما الخشية التي هي شدة الخوف حَقُّ لله تعالى. كذلك أيضا من العبادات: الاستعانة، قال الله تعالى: { إِنَّا كُنَّا نَعْبُدُكُمْ وَإِنَّا كُنَّا لَمُتَّعِينَ } قيل: إن هذه الآية دالة على تَوَعِّي التوحيد: توحيد الألوهية، وتوحيد الربوبية، فتوحيد الألوهية: { إِنَّا كُنَّا نَعْبُدُكُمْ } وتوحيد الربوبية: { وَإِنَّا كُنَّا لَمُتَّعِينَ } هكذا أخبر { وَإِيَّاكُمْ نَسْتَعِينُ } . والنبي صلى الله عليه وسلم قال في حديث ابن عباس { إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله } ويقول الله تعالى: { وَرَبَّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَيَّ مَا تَصِفُونَ } الاستعانة التي هي طلب العون من الله وحده، وإذا استعان بالإنسان فإنه يستعين به فيما يقدر عليه من القوة التي أعطاه الله، مع أن قوته إنما هي من الله وبالله. كذلك أيضا الاستعانة بعبادة؛ ولذلك يأمر الله بها في قوله: { فَلِأَعْوُدَ بِرَبِّ الْقَلْقِ } { فَلِأَعْوُدَ بِرَبِّ النَّاسِ } { فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ } { وَفَلِ رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيْطَانِ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرَكُم مِّنَ الشَّيْطَانِ تَرْغُ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ } . التي هي طلب الحماية والحفظ، يشعر الإنسان مثلا بالخوف من المخلوقات أو بالصر من أية مخلوق، فلا يجد له مَعَاذًا ولا ملجأ إلا الله، فيقول: أعوذ بك يا رب، أعتصم بك، وأستعين بك، وأتحفظ بك، وألوذ بك من أعدائي أن يصروني، فإن نواصبيهم بيك: { مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا } يُسَلِّطُهَا عَلَى مَنْ يَشَاءُ، وَيَرْزُقُهَا عَمَّنْ يَشَاءُ، فالمتعبد يشعر من نفسه بأنه ضعيف عن مقاومة أعدائه، فيلجأ إلى ربه وينظر بين يديه ويلوذ به، ويطلبه أن يحميه ويعصمه ويحفظه ويُخَصِّنُهُ مَنْ كَيْدٍ كُلِّ مَنْ يَرِيدُ أَنْ يَكِيدَهُ؛ فالاستعانة بعبادة، وأي عبادة. وكذلك الاستعانة، وهي الدعاء من المكروب؛ ولذلك قال تعالى: { إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ } أي تطلبونه في حالة شدتكم؛ ولهذا يُسَمَّى دعاء لله تعالى بطلب المطر استعانة؛ وذلك لأن الناس إذا أجدبوا، وقعوا في شدة، ووقعوا في فاقة وفي ضرر؛ فهم يدعون الله تعالى في تلك الشدة؛ فَيُسَمَّى دعاؤهم استعانة أي: نستغيث بك نطلبك يا رب أن تعيننا، العوث الذي هو إزالة الشدة، وإزالة المخاوف، وإزالة الشدائد عندما تحيط بالإنسان الأعداء من كل جانب. كذلك بقية العبادات: الركوع عبادة، والسجود عبادة، والخضوع عبادة، والذبح عبادة، كما في هذه الأيام الذين يذبحون هديهم، أو يذبحون فدية، أو يذبحون جزء، أو يذبحون دم جبران، أو ما أشبه ذلك، أو يذبحون أضاحي، ماذا يقصدون بذبحها؟ لا شك أنهم يقصدون بها التقرب إلى الله؛ ولأجل ذلك تُسَمَّى قربانين، هذه الأضاحي، وهذه الهدايا تسمى قربانين. كيف سميت؟ لأنهم يتقربون بها إلى الله، فيقولون: يا رب هذه مما سخرت لنا من بهيمة الأنعام، أنت الذي سخرتها، وأنت الذي دللتها لنا، فنحن نتقرب بها تعظيمًا لك، لا تعظيمًا لمخلوق سواك؛ ولذلك يقول ابن القيم رحمه الله: ولأجل ذا ضحى بجعد خالد القسري يوم ذبائح القربان سَكَرَ الصَّحْبَةَ كُلَّ صَاحِبِ سُنَّةٍ لِلَّهِ دَرَكٌ مِنْ أَحْيِ قُرْبَانِ الْقَرْبَانِ هُوَ الْأَضَاحِي، وهذه الهدايا التي تذبح هنا. يقول النبي صلى الله عليه وسلم: { لعن الله من ذبح لغير الله } الذين يأتون مثلا إلى قبر الولي فلان، يعقرون عنده ناقة، أو يذبحون عنده بقرة أو شاة، أو حتى أية شيء يعظمونه به، يعتبرون بذلك قد عظموا هذا المخلوق الذي لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضررًا. ورد في الحديث المشهور: أَنَّ رَجُلًا مَرَّ عَلَى قَوْمٍ لَهُمْ صَنْمٌ؛ لَهُمْ صَنْمٌ قَبْرٌ وَهَيْكَلٌ مَا يَتَجَاوَزُهُ أَحَدٌ حَتَّى يُؤَرَّبَ لَهُ، فَأَحَدٌ الَّذِينَ مَرُوا عَلَيْهِ قَرِبَ ذَبَابَةٌ؛ أَخَذَ ذَبَابًا وَقَتْلَهُ تَعْظِيمًا لِهَذَا الصَنْمِ، فَكَانَ ذَلِكَ شِرْكًَا اسْتَحَقَّ بِهِ أَنْ يَدْخَلَ النَّارَ، وَالْآخَرُ امْتَنَعَ وَقَالَ: مَا كُنْتُ لِأَقْرَبَ لِأَحَدٍ شَيْئًا دُونَ اللَّهِ- لِقُوَّةِ إِيْمَانِهِ- فَكَانَ ذَلِكَ سَبَبًا فِي أَنْهُ لَمَّا قَتَلَهُ قَبِلَ شَهِيدًا، فَدَخَلَ الْجَنَّةَ. وكذلك البُذُورُ: يقع من المشركين أنهم يعظمون المشاهد والقبور، فيقول أحدهم: إذا شَفِيَ مريضٌ فَعَلَيَّْ أَنْ أُذِيعَ لِقَبْرِ شَاةٍ، أو أُذِيعَ له دجاجة، أو نحو ذلك. أو إذا شَفِيَ مريضٌ أو رجع غائبي فَعَلَيَّْ للسيد الفلاني أن أُشْرَحَ قبره ليلة أو ليالي. أو يقول مثلا: إذا ربحت في تجارتي فَعَلَيَّْ للسيد الفلاني، أو القبر الفلاني أن أهرق عليه ستمًا، أو نحو ذلك. أليس هذا تعظيمًا لهذا السيد؟ أي لهذا القبر. لا شك أن هذا يُعْتَبَرُ عبادة، فيكون من الشرك والعباد بالله. نعرف أن هذه عبادات الله، التي لا يجوز لأحد أن يصرف منها شيئًا لغير الله. من صرف منها شيئًا لغير الله فقد أشْرَكَ بالله، وقد كفر نعمة الله تعالى.